من عبر التاريخ

في الكيد للإسلام

ألفه

مفتي الخلافة العثمانية

العلامة محمد زاهد الكوثري الحنفي

إصدار

واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم – فلسطين

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة موجزة للعلامة الجليل

سيدي محمد زاهد بن الحسن الكوثري الحنفي الجركسي

اسمه ونسبه:

هو العلامةُ المؤرخ، الناقدُ المحقق، المسندُ المحدِّث، وكيلُ مشيخة الدولة العثمانية، شيخُ الإسلام والمسلمين محمد زاهد بن حسن الحلمي بن علي بن خضوع بن باي بن قانيت بن قنصو الجركسي الكوثري الحنفي، نسبة إلى قرية الكوثري بضفة نهر "شيز" من بلاد القوقاز، ويرجع أصله إلى قبيلة الشابسوغ الجركسية العريقة، وقد سكن أجداده الضفة اليسرى من نهر القوقاز.

مولده:

كان مولده رحمه الله تعالى بقرية حاج حسن قريسي من أعمال دوزجه بشرقي استانبول، وكان ذلك في 28 شوال 1296 هجري الموافق 15 أكتوبر 1879 رومي.

نشأته ورحلاته:

تلقى رحمه الله تعالى عن والده المبادئ الأولى للعلوم الإسلامية، ثم رحل إلى مدينة دوزجه حيث استقر بها طالباً للعلم، فتلقى العلوم الشرعية والنحو والصرف والتاريخ والرياضيات واللغة الفارسية وتقويم البلدان، وفي عام 1311 هجري الموافق 1893 رومي قصد استانبول واستقر في مدرسة الحديث التي أنشأها قاضي العسكر حسن أفندي، ثم انتقل إلى جامع الفاتح طالباً للعلم، فأخذ التوحيد والفقه والأصول والمصطلح والتفسير والحديث والأدب والمنطق وآداب المناظرة والحكمة والصرف والبلاغة لتمتحنه بعدها لجنة يرأسها أحمد عاصم الكملنجاوي وتمنحه درجة الإجازة العلمية العالمية عام 1325 هجري الموافق 1907 رومي، تدرَّج رحمه الله في المناصب العلمية فاشتغل بعد نيل الإجازة بالتدريس في جامع الفاتح وعمره أقل من ثلاثين عاماً، إلى أن عُيِّن شيخاً للمشايخ بجامع الفاتح، ثم وكيلاً لشيخ الإسلام الخاص بالدرس، وبعد هيمنة كمال أتاتورك وأتباعه على السلطة استقل الباخرة من استانبول باتجاه الإسكندرية ليستقر بعدها في القاهرة ويعيش عيشة الكفاف منفقاً على نفسه وزوجته المريضة من ترجمة الكتب والوثائق التركية بدار المحفوظات المصرية، وقبل مرور عام على مغادرته الأستانة رحل إلى الشام رحلته الأولى وسافر منها إلى بيروت، ثم انتقل بالسكة الحديد إلى دمشق حيث مكث بها ما يزيد عن سنة، ثم عاد أدراجه إلى مصر بطريق فلسطين، ثم عاد مرة أخرى إلى دمشق وأقام بها حوالي سنة، ثم غادرها وفق الطريقة السالفة الذكر عائداً إلى مصر، وقد التقى رحمه الله في رحلاته كثيراً من الأعلام والأعيان الكبار، ولما استقر به المقام رحمه الله في القاهرة عُيِّن موظفاً بدار المحفوظات المصرية لتعريب الوثائق التركية بعد اختباره، وكان بيته مزار كثيرٍ من العلماء والطلبة.

شيوخه:

أخذ رحمه الله تعالى العلم عن كثير من علماء وأعيان عصره، نذكر منهم:

1- والده الشيخ العلامة حسن الحلمي بن علي الكوثري الحنفي (ت 1345 هـ).

2- الشيخ المحقق الإمام محمد بن ناظم بن الحسين الدوزجوي (ت 1329 هـ).

3- الشيخ العلامة الأديب محمد أسعدده المولوي (ت 1329 هـ).

4- الفقيه الأصولي الأديب المتفنن الحافظ الشيخ إبراهيم حقي الأكيني (ت 1318 هـ).

5- الشيخ العلامة الزاهد علي زين العابدين الألصوني (ت 1336 هـ).

6- الشيخ العلامة حسن بن عبد الله القسطموني (ت 1329 هـ).

7- الشيخ العلامة ضياء الدين يوسف بن الحسين التكوشي (ت 1339 هـ).

8- الشيخ العلامة المفتي أحمد بن مصطفى العمري الحلبي (ت 1334 هـ).

9- العلامة المحدِّث السيد محمد بن جعفر الكتاني (ت 1345 هـ).

10- العلامة الشيخ محمد بن سعيد بن أحمد الفراء الحنفي (ت 1345 هـ).

11- العلامة المحقق الشيخ محمد بخيت المطيعي الحنفي (ت 1354 هـ).

12- العلامة الحافظ الشيخ محمد بن سالم الشرقاوي النجدي (ت 1350 هـ).

13- العلامة السيد أحمد بن رافع الطهطاوي الحسيني الحنفي (ت 1355 هـ).

14- الشيخ العلامة جمال الدين يوسف بن أحمد الدجوي (ت 1365 هـ).

مؤلفاته:

كان رحمه الله تعالى ذا مشاركة في غالب الفنون الشرعية، فصنَّف وألَّف الكثير، وكان مَرجعاً في الحديث النبوي الشريف ورجاله، وحُجَّة في المراجع والمكتبات العامة والخاصة في العالم العربي والإسلامي، وبفضل سعة إطلاعه ومعرفته بالمخطوطات ضمَّ إلى التأليف التعليق والتحقيق لمؤلفات نادرة، ومن المؤسف أن منها ما يُعدُّ من المفقودات، ومنها ما زال مخطوطاً أو ضاع أصلها المخطوط، نذكر من مصنفاته رحمه الله تعالى على سبيل المثال لا الحصر:

1- الإشفاق على أحكام الطلاق.

2- إحقاق الحق بإبطال الباطل في مغيث الخلق.

3- إرغام المريد في شرح النظم العتيد لتوسل المريد.

4- الاستبصار في التحدث عن الجبر والاختيار.

5- تاريخ مذاهب الفقهاء وانتشارها.

6- تحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز.

7- محق التقول في مسألة التوسل.

8- من عبر التاريخ في الكيد للإسلام.

9- البحوث السنية عن بعض رجال الطريقة الخلوتية.

10- البحوث الوفية في مفردات ابن تيمية.

11- التعقُّب الحثيث لما ينفيه ابن تيمية من الحديث.

12- تحذير الخلف من مخازي أدعياء السلف.

13- تدريب الطلاب على قواعد الإعراب.

14- تدريب الوصيف على قواعد التصريف.

15- ترويض القريحة بموازين الفكر الصحيحة في المنطق.

16- تفريح البال بحل تاريخ ابن الكمال.

17- فصل المقال في بحث الأوعال أو "فصل المقال في تمحيص أحدوثة الأوعال".

18- قوة النواظر في آداب المناظر.

19- المدخل العام لعلوم القرآن.

طلابه:

أخذ عنه رحمه الله تعالى خلقٌ كثير ممن شهدت لهم الأمة بالعلم والهدى والتقى، وكانت وما زالت لهم قدم السبق في شتى الفنون، وقد تجاوزوا الثلاثمائة، نذكر منهم:

1- العلامة المجتهد السيد عبد الله بن الصديق الغماري الحسني رحمه الله (ت 1413 هـ).

2- محدِّث المغرب السيد العلامة عبد العزيز بن الصديق الغماري الحسني رحمه الله (ت 1418 هـ).

3- العلامة السيد علوي بن عباس المالكي الحسني رحمه الله (ت 1391 هـ).

4- العلامة المتفنن علم الدين محمد ياسين بن محمد عيسى الفاداني المكي رحمه الله (ت 1410 هـ).

5- العلامة المحدِّث السيد محمد المنتصر الكتاني الحسني رحمه الله (ت 1419 هـ).

6- العلامة المحدِّث السيد عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله (ت 1417 هـ).

7- العلامة الشيخ أحمد خيري باشا رحمه الله (ت 1387 هـ).

8- العلامة الشيخ عزت العطار الحسيني رحمه الله (ت 1375 هـ).

9- العلامة الشيخ محمد بن سعد الله بن عبد الرحيم الختني المدني التركستاني رحمه الله (ت 1399 هـ).

10- العلامة الشيخ فؤاد بن سيد عمارة رحمه الله (ت 1387 هـ).

مواقفه:

كان له رحمه الله تعالى من اسمه وافرُ النصيب، فبعد استقلال كمال أتاتورك عن الحكومة المركزية وإعلان الفصل بين السلطة والخلافة ومن ثم إلغاء الخلافة تعرَّض رحمه الله للمضايقات كغيره من المشايخ، فآثر أن يغادر استانبول فارّا بدينه قابضاً عليه مؤثراً الدين على الدنانير.

وفاته:

أملى رحمه الله تعالى على تلميذه العلامة الشيخ أحمد خيري باشا بتاريخ 27 رمضان 1371 هجري الموافق 20 يونيو 1952 رومي أبياتاً من إنشائه يقول فيها:

يـــا واقفـــاً بشـــفير اللحـــد معتـــبرا ... قد صار زائر الأمـــس اليـــوم قـــد قـــبرا

فالموت حتمٌ فـــلا تغفـــل وكـــن حـــذرا ... مـــن الفجـــاءة وادع للـــذي عـــبرا

فالزاهـــد الكـــوثري ثـــاوٍ بمرقـــده ... مســـترحماً ضـــارعاً للصـــفح منتظـــرا

وطلب إليه أن تكتب على قبره، وكأنه كان يؤذن بدنو أجله، فلم يطل به المقام وتوفي رحمه الله تعالى يوم الأحد 19 من ذي القعدة 1371 هجري الموافق 10 أغسطس 1952 رومي عن خمسة وسبعين عاماً، وقد أمَّ الصلاة عليه الشيخ عبد الجليل عيسى شيخ اللغة العربية، ودفن قرب قبر أبي العباس الطوسي في قرافة الشافعي، وقد حقق رغبتَه تلميذُه الشيخ حسام الدين القدسي فكتب الأبيات التي أشار بها على الشيخ أحمد خيري باشا.

نفعنا الله بعلومه وأفاض علينا من بركاته

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

إعداد:

واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم - فلسطين

27 جمادى الثاني 1431 هجري الموافق 10 يونيو 2010 رومي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين.

وبعد،،،

فهذه كلمات حررتها تحت عنوان (من عبر التاريخ) لتفيد استذكار صنوف الكيد التي دبرها أعداء الإسلام مدى الدهور من الداخل والخارج، وتعرف أبرز الشخصيات في تلك الفتن المدبرة، وفيها عظات وعبر لمن أراد أن يتذكر نفعها، والله سبحانه وليُّ الصون والعون.

ليس بخافٍ ما لقيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الأبرار رضي الله عنهم من صنوف العنت من أعداء الدين الإسلامي في مبدأ الدعوة الإسلامية، بل توالت صنوف كيدهم إلى أن بدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فارتد كيد الكائدين إلى نحرهم بفضل تفاني المسلمين في التأسي بتوجيه حضرة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في كل صغير وكبير.

وكانت مصابرة الصحابة رضي الله عنهم ومثابرتهم في سبيل الذبِّ عن دين الله والدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوق كل وصف حتى شمل النور، وعمَّ الحبور، وبرزت هذه الأمة حاملة لمشعل الهداية تنشر الدين الإسلامي في شعوب العالم حتى تم ما تم مما بهر عيون البشر وما زلنا به نفخر، ولا عجب إذا لقينا بعض أتعاب في سبيل الله في آخر الزمن، ولا طريق إلى التغلب على تلك المتاعب إلا باتخاذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أسوة حسنة في وجوه المثابرة والمصابرة إزاء أخطر الأحداث، فاستذكار صنوف الكيد من الأعداء يجعلنا نأخذ حذرنا وأسلحتنا في كل موقف بما يناسبه، وما عمله بنو النضير من دسهم إلى قريش في قتال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحضهم على القتال ودلالتهم على العورة، وما صنعه بنو قريظة وأهل خيبر من أنواع المكر نماذج لدسائسهم، وتدبير المسلمين إزاء تلك الأحداث نبراس يهدي إلى طريق النجاح في اقتحام ما يماثلها من المشاكل التي تحدث فيما بعد، وبعد أن انتقل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى وانتشر الإسلام في بقاع الأرض في عهديْ أبي بكر وعمر وأوائل عهد عثمان رضي الله عنهم بدأت الفتن ترفع رؤوسها في عهد ذي النورين باستضعاف الفاتنين للين جانبه، وسعيهم الحثيث في إثارة النفوس ضده بطرق خبيثة لم تكن الصحابة رضي الله عنهم خبروا مثل تلك المكائد بعدُ، فاندفع مندفعون إلى الفتنة حتى حدث ما حدث مما أوقف التقدم السريع إيقافاً محزناً.

وهكذا استمرت الفتن بعده بمسعى شخصيات تلفعت بغير أزيائها، ولسنا ننسى ما كان يصنعه عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء اليهودي من تنقله من بلد إلى بلد يتعثر في أذياله لإثارة الفتن في عهد عثمان رضي الله عنه بطرق شيطانية لم يكن الجمهور على يقظة منها.

قال المقريزي في (الخطط)(4-146): "إن رجلاً من اليهود في خلافة عثمان رضي الله عنه أسلم فقيل له عبد الله بن سبأ وعرف بابن السوداء، وصار ينتقل من الحجاز إلى أمصار المسلمين يريد إضلالهم فلم يطق ذلك، فرجع إلى كيد

الإسلام وأهله ونزل البصرة سنة ثلاث وثلاثين فجعل يطرح على أهلها مسائل ولا يصرح، فأقبل عليه جماعة ومالوا إليه وأعجبوا بقوله، فبلغ ذلك عبد الله بن عامر وهو يومئذٍ أميرٌ على البصرة فأرسل إليه، فلما حضر عنده سأله ما أنت؟، فقال: رجل من أهل الكتاب رغبت في الإسلام وفي جوارك، فقال: ما شيء بلغني عنك؟، اخرج عني، فخرج حتى نزل الكوفة منها فسار إلى مصر واستقر بها وقال في الناس العجب ... وتحدث في الرجعة حتى قبلت منه، فقال بعد ذلك: إنه كان لكل نبي وصي وعلي بن أبي طالب عليه السلام وصي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم في أن علي بن أبي طالب عليه السلام وصيه في الخلافة على أمته، وقال: واعلموا أن عثمان رضي الله عنه أخذ الخلافة بغير حق فانهضوا في هذا الأمر، وابدؤوا بالطعن في أمرائكم فأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا به الناس، وبث دعاته وكاتب من مال إليه من أهل الأمصار وكاتبوه ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وصاروا يكتبون إلى الأمصار كتباً يضعونها في عيب ولاتهم، فكتب أهل كل مصر منهم إلى أهل المصر الآخر بما يصنعون حتى ملؤوا بذلك الأرض إذاعة".

قال ابن عساكر في (تاريخ دمشق): "كان أصله من اليمن وكان يهودياً فأظهر الإسلام وطاف بلاد المسلمين ليلفتهم عن طاعة الأئمة ويُدخل بينهم الشر ودخل دمشق لذلك"، وأفاض ابن جرير في أنبائه في تاريخه، هكذا نمت الفتنة في عهد عثمان رضي الله عنه واستفحلت وطمت حتى انتهت إلى ما يعلمه الجميع، وهذا اليهودي نفسه هو الذي يقول في عهد علي عليه السلام أنه وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخليفته على أمته من بعده بالنص، وأحدث القول برجعة علي عليه السلام بعد موته إلى الدنيا وبرجعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً – كما هو رأي بعض اليهود في يوشع–، وزعم أن علياً عليه السلام لم يقتل وأنه حيٌّ، وأن فيه الجزء الإلهي، وأنه هو الذي يجيء في السحاب، وأن الرعد صوته والبرق سوطه كما في (الخطط) (4 –182).

ثم قال المقريزي: "ومن ابن سبأ هذا تشعبت أصناف الغلاة من الرافضة، وعنه أُخذ القول برجعة الإمام بعد موته إلى الدنيا كما تعتقده الإمامية إلى اليوم في صاحب السرداب – آخر الأئمة الاثنى عشر– وهو قول بتناسخ الأرواح [1]، وعنه أخذوا أيضاً القول بأن الجزء الإلهي يحلُّ في الأئمة بعد علي بن أبي طالب عليه السلام، وأنهم بذلك استحقوا الإمامة بطريق الوجوب كما استحق آدم عليه السلام سجود الملائكة، وعلى هذا الرأي كان اعتقاد دعاة الخلفاء الفاطميين – العبيديين– ببلاد مصر"ا.هـــ.

وعلى هذا الاعتقاد إسماعيلية الهند ولهم هناك جامعة، بل تعدوا إلى نشر دعاياتهم بمصر اليوم بواسطة بعض الجامعيين لهواهم في مصر منذ قديم من حيث أن القاهرة كانت عاصمة ملكهم في عهد العبيديين – الذين يسميهم بعضهم بالفاطميين كذبا وزوراً – وما فعله علي عليه السلام من إيقاد الأخدود لأشياع هذا الخبيث معروفٌ في كتب الفرق وتواريخ النِّحَل، وقد نصَّ ابن رزام والباقلاني وعبد القاهر البغدادي وابن السمعاني وابن الجوزي وسبطه وابن حجر

(1) والقول بالرجعة موجود في تلمود اليهود وهو ينافي دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

والسخاوي والشمس بن طولون وغيرهم من ثقات أهل العلم على أنهم ليسوا بفاطميين وإن توهم ابن خلدون وابن الأثير والمقريزي صحة نسبهم لأسباب مشروحة في إعلان السخاوي وغيره.

قال أبو شامة الحافظ في (الروضتين): "ولم يكونوا فاطميين، وإنما كانوا ينتسبون إلى عبيد – وكان اسمه سعيداً– وكان يهودياً حداداً بسلمية – بحمص في الشام –".

وقال ابن كثير في (تاريخه) (12–267): "وكان أول ملك منهم المهدي، وكان من سلمية حداداً ... وكان يهودياً فدخل بلاد المغرب وتسمى بعبيد الله، وادعى أنه شريف علوي فاطمي، وقال عن نفسه إنه المهدي".

وعن فقيه العبيديين يعقوب بن كلس يقول ابن عساكر في (تاريخ دمشق): "كان يهودياً من أهل بغداد، خبيثاً ذا مكر وله حيلٌ ودهاء، وفيه فطنة وذكاء – إلى أن ذكر كيف أسلم طمعاً في الوزارة –".

وقال الذهبي في (تاريخ الإسلام الكبير) عن فقيههم الآخر النعمان القيرواني: "وتصانيفه تدل على زندقته وانسلاخه من الدين، أو أنه منافق نافق القوم، كما ورد أن مغربياً جاء إليه فقال: قد عزم الخادم على الدخول في الدعوة – يعني دعوة ملاحدة الإسماعيلية– فقال: ما يحملك على ذلك؟، قال: الذي حمل سيدنا، قال: نحن أدخلنا في هواهم حلواهم، فأنت لماذا تدخل؟!".

وفي (العبر) للذهبي، و(شذرات الذهب) لابن العماد (3–47): "والنعمان بن محمد بن منصور القيرواني القاضي أبو حنيفة الشيعي ظاهراً الزنديق باطناً قاضي قضاة الدولة العبيدية، صنف كتاب ابتداء الدعوة وكتاباً في فقه الشيعة وكتباً كثيرة تدل على انسلاخه من الدين يبدل فيها معاني القرآن ويحرفها، مات بمصر سنة 363 هـ في رجب وولى بعده ابنه".

وقد سلم المعز العبيدي – باني القاهرة– أبا بكر النابلسي العابد المشهور ليهودي ليسلخه فسلخه وهو يتلو القرآن كما في تاريخ ابن كثير (11–284)، فيعلم من ذلك أن سدا دولة العبيديين ولحمتها اليهودية نسباً ونحلة.

والذين ينوهون بهم من غير نظر إلى الحقائق هم الذين يسعون في إحياء ذكرى أمثال المتنبي وأبي العلاء المعري مدفوعين من جامع للمعرتين في التنويه بالاثنين، كأنهم لا يجدون في رجال الإسلام وأدباء العرب من يستحق مثل هذا الإجلال من غير الأظِناء المتهمين في الخُلق والدين!!، وما يكون هذا إلا تنويهاً بالإلحاد والملحدين يأباه أهل اليقين.

وكان الباقلاني يقول عن العبيديين: "هم قوم يظهرون الرفض، ويبطنون الكفر المحض" حتى ألف (كشف الأسرار وهتك الأستار) في الرد على كتاب (البلاغ الأعظم والناموس الأكبر) لبعض قضاة العبيديين بمصر.

وألف بعده الحافظ أبو شامة فيهم كتابه (كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد).

وقال عنهم ابن كثير في (تاريخه) (12–267): "كانوا من أغنى الخلفاء وأجبرهم وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة وأخبثهم سريرة".

وقال أبو الحسن القابسي: "الذين قتلهم عبيد الله وبنوه بعده ذبحاً في دار النحر التي كانوا يعذبون فيها الناس ليردوهم عن الترضي على الصحابة – أربعة آلاف رجل ما بين عالم وعابدٍ اختاروا الموت على لعن الصحابة–".

وأما الذين انصاعوا لهم وشرقوا- على مصطلحهم- ففي غاية من الكثرة، وأما الذين قتلوهم من عامة المسلمين فيما بين المغرب الأقصى ومصر فلا يعلم عددهم إلا الله سبحانه، والوثيقة التي أصدرها علماء المذاهب وأئمتها في إبعادهم عن النسب الزكي مدونة في منتظم ابن الجوزي، وتاريخ ابن كثير وغيرهما، والموقعون عليها جبال في الدين والعلم والثقة، ومن ظن انحيازهم إلى خليفة بغداد قاسهم بنفسه ولم يعرفهم ولا عرف ذلك الخليفة كما بينت ذلك فيما علقت على (كشف أسرار الباطنية)[1]، فليس من شأن قلم الحر المعتز بدينه الاسترسال في مناصرة أعداء الإسلام الذين اكتظت كتب ثقات أهل العلم بأنبائهم الإلحادية.

قال ابن كثير في تاريخه (12-9) عن الحاكم بأمر الله منهم: "كان يروم أن يدعي الألوهية كما ادعاها فرعون، فكان قد أمر الرعية إذا ذكر الخطيب على المنبر اسمه أن يقوم الناس على أقدامهم صفوفاً، إعظاماً لذكره، واحتراماً لاسمه، فعل ذلك في سائر ممالكه حتى في الحرمين الشريفين، وكان قد أمر أهل مصر على الخصوص إذا قاموا عند ذكره خروا سجداً له، حتى إنه ليسجد بسجودهم من في الأسواق من الرعاع وغيرهم ممن كان لا يصلي الجمعة، وكانوا يتركون السجود لله في يوم الجمعة وغيره ويسجدون للحاكم"ا.هـ.

وقال ابن الجوزي في المنتظم (7-298): "ثم ازداد ظلم الحاكم حتى عَنَّ له أن يدعي الربوبية، فصار قوم من الجهال إذا رأوه يقولون: يا واحدنا، يا أحدنا، يا محيي، يا مميت" قبحهم الله جميعاً.

ومن علم أن مدة حكم الحاكم هذا من سنة 386هـ إلى سنة 411هـ يرى الاعتذار عنه بأنه كان مجنوناً كاملاً لا يلتفت إليه؛ لأن من المحال في جاري العادة أن يستبقي حاكم وهو مجنون مدة خمس وعشرين سنة، ومن الحاكم هذا تفرعت نحلة تأليهه عند الدروز، وفي الجزء الثالث من خلاصة الأثر حكم أهل المذاهب فيهم، ولسنا ندري دولة من الدول في تاريخ الإسلام حكَّمت على رقاب العرب صنوف الصقالبة والصقلبيين، وطوائف الروم، والأرمن، واليهود، والكتابيين سوى دولة العبيديين، فيكون من المضحك المبكي محاولة الاعتزاز بأمثال هؤلاء في آخر الزمن، والمحراب القديم في الأزهر كمبكى اليهود في المسجد الأقصى في نظر بقايا هؤلاء الإسماعيلية في الهند، ومن العجيب تمكنهم من إقامة دعايات لهم بمصر في غفلة من الزمن.

ترى شاباً في الجامعة الإسماعيلية في كجرات - وهي لا تقبل طالباً لا يكون إسماعيلياً روحاً ودماً كما هو معلوم- ينتسب يوماً ما إلى الأزهر باسم أنه شافعي أو حنفي، ويبدي نشاطاً غريباً في الدعاية للإسماعيلية إلى أن تجده يقول في العدد (331) من مجلة الرسالة في مقال له عن ديوان تميم بن المعز العبيدي: "فإذا ما أتيح للفاطميين أن يقيموا دولتهم الكبرى في وادي النيل فنحن أمام دولة عربية هاشمية تحمي اللغة كما تحمي كتابها ودينها"، وهذا قلب للحقائق كما

(1) وفي المحضر الذي أصدره أهل العلم سنة 402هـ "أنهم أدعياء لا نسب لهم في ولد عليٍّ عليه السلام ..."، ومن جملة من وقَّع عليه الشريفان الرضى والمرتضى، وأبو محمد الأكفاني القاضي، وأبو حامد الاسفرائيني، وأبو الحسين القدوري وغيرهم من كبار الأئمة، وهذا حكم شرعي يجب الخضوع له ولو أعطى هؤلاء الدنيا بحذافيرها لما حكموا بما يخالف الحق. (ز).

أوضحت ذلك في (36-1361 هـ) من مجلة الإسلام، وهذا الشاب نفسه هو الذي يقول في ذلك المقال: "ومن أحسن ما قيل في تميم بن المعز الفاطمي قول ابن رشيق:

أصحُّ وأعلى ما سمعناه في الندى ... من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا ... عن البحر عن كفِّ الأمير تميم

ا.هـ.

فجعل ممدوح ابن رشيق تميم بن المعز العبيدي مع أنه لم يدركه حتى يتصور أن ينظم في مدحه قصائد رنانة، بل ممدوحه هو بَلَدِيّ ابن رشيق تميم بن المعز بن باديس المتأخر الوفاة، وليس بين ترجمتيهما في تاريخ ابن خلكان غير خط فاصل، وفيه النصُّ على أن الممدوح هو ابن باديس لكن الدعاية تجعل الليل نهاراً والصيف شتاءً.

وزد عن ذلك ما تراه في الجزء الثالث من مجلة الأزهر لسنة 1357 هـ (ص: 180) تحت ستار التوصية بالابتعاد عن التعصب: أن يكون الأزهر كعبة جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم، ويدرس فيه المذاهب العلوية: كمذهب الزيدية، والإمامية، والإسماعيلية – إن كان له بقية– فهو الأحقُّ من سواه.

انظر إلى هذه الجرأة وهذه الصراحة ممن يعرف ما هي نحلة الإسماعيلية؟! وصاحب المقال كان يعرف كتبهم المحفوظة في دار الكتب المصرية على الأقل، لكن هذا طراز في الدعاية، فكأن الكاتب كان يريد التمهيد لتسليم البضاعة، كما أن إخلاء الأزهر من الدراسة رسمياً يوماً ما كان تمهيداً لذلك أيضاً، لكن الله ردَّ كيد الكائدين في نحرهم.

ومما يدل على أن أمد بكاء الإسماعيلية يطول مشروع زعيمهم في امتلاك حصص كبيرة من مدينة الأوقاف المزمع إنشاؤها، وفي محضر المحادثة بين زعيم الإسماعيلية ورئيس الأزهر المنشور في إحدى المجلات قبل سنين ما يكشف عن كثير من اتجاههم في هذا الصدد، وكل ذلك من عجائب الزمن.

ورئيس طائفة العنانية من اليهود المعروف بعانان (رأس الجالوت) الذي كان قدم من المشرق في أيام المنصور العباسي، ورئيس طائفة العيسوية من اليهود أبو عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهاني المعاصر للمنصور العباسي أيضاً كانا يقولان: "إن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم نبيٌّ مرسل لكن إلى العرب خاصة، وكانا يريدان بذلك الدسَّ بين المسلمين وإفساد ما بين العرب وغيرهم من الإخاء الإسلامي المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات:10)، مع ظهور أنه صلى الله عليه وآله وسلم مبعوثٌ إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً بنصِّ القرآن الحكيم، والنعرة العنصرية مع هجر الإخاء الإسلامي تكون انخداعاً بمكر الماكرين من هؤلاء، ولا ينخدع بذلك إلا من انطمست بصيرته وتاه في متاهة الجاهلية الأولى فنسأل الله الصون.

ولكثير من اليهود في البلاد الإسلامية براعةٌ في الطب والفلسفة، ولثلاثة منهم أعمال خاصة تهم المشتغلين بشئون الإسلام فنلفت إليهم الأنظار وهم: ابن كمونة، وابن ميمون، وابن ملكا.

فابن كمونة: هو عزُّ الدين سعد بن منصور البغدادي المتوفى سنة 683 هـ، ملحدٌ صريح، ألَّف (تنقيح الأبحاث عن الملل الثلاث)، تعرض فيه للنبوة محاولاً أن يقضي على الأديان الثلاثة قائلاً: "عَلَيَّ وعَلَى أعدائي"، لكن قضى على

نفسه من غير أن يقضي على الأديان، حيث ثار الناس ببغداد ضد هذا الملحد وهموا بقتله إلا أنه وجد من يهربه في صندوق إلى الحلة عند ابنه، فأقام عنده أياماً ثم أدركه هناك الموت – الأحمر– جامعاً بين الخسرانين كما في (ص:441) من (الحوادث الجامعة في المائة السابعة للمؤرخ الكبير عبد الرازق الفوطي)، ومن مريدي هذا الملحد اليهودي في آخر الزمن جميل صدقي الزهاوي، وكان يفتخر بكتاب له محفوظ عنده، وكذا الرصافي المعروف.

وقد ردَّ على كتاب ابن كمونة الإمام الأصولي الفقيه مظفر الدين أحمد بن علي بن تغلب الساعاتي البغدادي المتوفى سنة 694 هـ بكتاب سماه (الدر المنضود في الردِّ على فيلسوف اليهود)، ولابن كمونة عدة مؤلفات في المنطق والفلسفة منها (شرح التلويحات) للشهاب السهروردي المقتول.

وابن ميمون: هو أبو عمران موسى الأندلسي تخرَّج في الفلسفة على أمثال ابن طفيل، وابن رشد، فجرى على تنزيه الله سبحانه عن الجسمية وعن مشابهة الحوادث مع تأويل نصوص كتب اليهود في التشبيه الصريح، فأصبح رئيس طائفة منهم يتزعمهم، وهو شديد التحامل على المتكلمين في (دلالة الحائرين)، لكن ترى علماء الإسلام قليلي الاهتمام بالردِّ عليه، ولعل هذا التساهل منهم معه أتى من جهة سعيه الخبيث في انتشال اليهود من ورطة التجسيم المتوارث بينهم، فوجدوا في عمله هذا تخفيف الشرِّ في جانب اليهود فكان هذا شفيعاً له عندهم، وتعرضه لفرق المسلمين لم يبالوا به لكونه سهل الرد عليه، كقوله في نقض دليل المتكلمين في نفي الجسمية عن الله من (احتياج المقدار الخاص إلى مخصص، والمحتاج لا يكون قديماً) بأن مقداره يكون واجباً لا يحتمل الزيادة والنقص، متغاضياً عن أن الكمَّ المتصل القائم بالجسم عرض طارئ حيث غفل عن أن مثل هذا الوجوب مما يمكن ادعاؤه في كل جسم يدعي قدمه مع أن قدم الأجسام ليس من مذهبه، بل ذكر نحو خمس وعشرين مقدمة تنزه الباري تعالى عن الجسمية، وقد أخذ الشيخ الحراني[1] في معقوله بكل أسف برأي ابن ميمون هذا في وجوب المقدار الخاص في محاولته الرد على الآمدي في تنزيه الباري جلَّ جلاله عن جهة مع ظهور سقوط رأي ابن ميمون في المقدار الخاص بما أوضحته، كما أخذ برأي ابن ملكا في تجويز تغير العلم والإرادة المتعلقين بالمعلوم المتغير – مع أن التغير في نفس الصفة يوجب حدوث الموصوف– حتى ادعى وجوب التنزيه عن هذا التنزيه!، وهذا قياس منه للغائب على الشاهد، وتجويز لحلول الحوادث في الله المحال عند المتكلمين والفلاسفة في آن واحد، وحرصاً منه على استدامة تشبيه اليهود بعد تظاهره بالإسلام، وقول القائل من المتكلمين بتغير التعلق غير القول بتغير الصفة كما هو مشروح في موضعه، وقد وسعَّ الشيخ الحراني رأي ابن ملكا في العلم والإرادة إلى أن جعله يشمل الحرف، والصوت، والمسَّ، والمشي، والقعود والحركة، والحدَّ والجهة وغير ذلك بكل وقاحة، فخرج عن الجادة خروجاً بيِّناً لا حجاب دونه، مع أنه لا تغير في علم الله ولا في إرادته؛ لأنهما ليسا بزمانين ولا بمكانين كما في الشاهد؛ بل علم الله حضوري ليس له تقدم أو تأخر زماني أو مكاني لتعاليه سبحانه عنهما، وكذلك إرادته جلَّ جلاله وكل ما هو مبسوط على آنات الزمان ونقاط الخط الممدود في المكان يعلمه تعالى علماً وحدانياً ثابتاً من غير تقدم ولا تأخر، فلا تغير في علمه وإرادته سبحانه، فالعمود

1) هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني توفي سنة 728 هـ (علي رحمي).

الكبير مثلاً إذا كان عليه أعلام ألوان عريضة متوازية فعند وضع النملة على لون منها تحسب أنها تمشي في صحراء من السواد مثلاً ثم في صحراء من البياض وهكذا، فإبصارها فيه تقدم وتأخر لضعف باصرتها بخلاف باصرتنا، فإننا نرى تلك الألوان بمرة واحدة بدون تقدم ولا تأخر فكيف عند الله، وكل ما يتعلق بالله ليس له أي شبه بما عندنا، فلا يتصور التقيد بزمان ولا بمكان لا في علمه ولا في إرادته، وقد أخذ الشيخ الحراني فأسقط ما عند الرجلين من الزيغ المبين، وفي ذلك عبرة للمعتبرين، وموسى بن ميمون توفي سنة 600 هـ أو 605 هـ بمصر والكلام فيه طويل.

قال أبو حيان الأندلسي في تفسيره (7- 472) عن موسى ابن ميمون هذا: "رئيس اليهود في زمانه بمصر، وكان هذا اليهودي قد أظهر الإسلام ورحل من الأندلس ... فلما قدم مصر – وكان ذلك في دولة العبيديين وهم لا يتقيدون بشريعة– رجع إلى اليهودية، وأخبر أنه كان مكرهاً على الإسلام، فقبل منه ذلك، وصنف لهم تصانيف منها كتاب (دلالة الحائرين)، وإنما استفاد ما استفاد من مخالطة علماء الأندلس وتودده لهم، والرياسة إلى الآن بمصر لليهود في كلِّ من كان من ذريته"ا.هـ.

وابن ملكا: هو أبو البركات هبة الله بن ملكا البغدادي – صاحب (المعتبر) المتوفى سنة 547 هـ، قضي معظم عمره وهو يهودي، ولما سمع أن ابن أفلح هجاه بقوله – وتمثل به ابن التلميذ–:

لنا طبيب يهودي حماقته إذا تكلم تبدو فيه من فيه
يتيه والكلب أعلى منه منزلة كأنه بعد لم يخرج من التيه

تظاهر بالإسلام ابتعاداً عن الهوان والله أعلم بما في قلبه، وهو الفيلسوف الوحيد الذي وجد ابن تيمية بغيته عنده واتخذه قدوة لنفسه في القول بجواز حلول الحوادث في الله سبحانه، تعالى الله عن إفك الأفاكين.

ومن المسَلَّم به الذي لا ريب فيه أن استذكار أساليب أعداء الدين الإسلامي في النيل منه على طول التاريخ مما يزيد القائم بالذبِّ عنه والجهاد في سبيله بصيرة تنير طريق الدفاع، ولذا يجب علينا أن نستذكر مسالكهم في العداء ونعتبر بمواضع العبر فيها لنكون على بينة من أمرنا، وبعد أن ذكرت بعض حيلهم في داخل الحصن الإسلامي أكشف الستر الآن عن بعض أعمالهم العدائية من الخارج لنستدل بتلك النماذج اليسيرة على الممالآت الكثيرة المدبرة وراء اطلاعنا، وقد امتلأت كتب التاريخ بأنباء عصبة التعصب من حملة الصليب الذين كانوا تكاتفوا في تجريد السيوف على الشرق الإسلامي في قرون متتابعة حيث كانوا يخافون على مصير دينهم في عقر دارهم بما شاهدوا من سرعة انتشار الدين الإسلامي – دين الفطرة– في الشعوب البشرية في شتى الأصقاع.

وكانت حملاتهم متواصلة في غاية الشدة لكن كان في العرين أسد لا يصطلي بنارهم، ولا يمس أنف أنفتهم أصلاً إذ ذاك حيث كان المسلمون في تلك القرون أباةً أعزاءً تذوقوا عزَّ الحياة الإسلامية بالمعنى الصحيح، وقد تغلغلت التعاليم الإسلامية في نفوسهم تغلغلاً يحملهم على الذود عن حياضها بمهجهم مضحين بكل مرتخص وغال في هذا السبيل، و لم يكن إسلامهم مجرد إسلام المواسم الدينية، ولا بينهم من يواد من حادَّ الله ورسوله ومالأ الأعداء خيانة أو خوراً أو جبناً، فحالوا دون وصول الأعداء إلى غاياتهم حتى ارتد المهاجمون على أعقابهم وعادوا أدراجهم راجعين بخفي

حُنين، وقد تزلزلت أقدامهم، وارتعدت فرائصهم مما رأوا في الإسلام والمسلمين من سمو المبادئ والنهوض الميمون، فازدادوا خوفاً على مصير دينهم في ديارهم، فحاولوا في هذه المرحلة دفع الخطر الإسلامي عما يدينون به بإذاعة كل سوء عن الإسلام والمسلمين في بلاد الغرب كذباً وزوراً، لكن الواقع أن نهضات أوربا في كثير من النواحي بعد ذلك إنما كانت بسبب اتصال الصليبيين بالشرقيين في تلك الحروب الدامية.

فمن تلك النهضات قيام اللوثريين بالإصلاح الديني المعروف، وإن كانت اللوثرية لم تستطع أن تعدو حدَّ أن تكون صفحة من الوثنيات المتغلغلة في باقي فرقهم، وكم أذاعوا عن الإسلام في تلك المرحلة من أكاذيب ملفقة مما يندى به جبين الحرِّ خجلاً من تلك الافتراءات المكشوفة الستار، والإسلام براءٌ منها جملةً وتفصيلاً حتى إن الكاتب الغربي المعروف (هانري دوكاستري) كان يتألم من تلك الدعايات الكاذبة المذاعة في البيئات الأوربية عن الإسلام والمسلمين من غير أن يكون لشيء منها ظلٌّ من الحقيقة ويقول: "ماذا كان المسلمون يقولون لو بلغهم ما يذاع عن دينهم من الأساطير والخرافات في الأوساط الأوربية في القرون الوسطى، إذ كان الجهل الحاكم في تلك القرون يحوك تلك الأساطير بصنوف من العدوان المكشوف والتعصب المرذول"، ثم قال: "حتى إن سوء القصد المتفشي في الأوساط الأوربية إلى اليوم ضد الإسلام والمسلمين ما هو إلا أثرٌ باقٍ من تلك الخرافات المذاعة عنهم إذ ذاك، وكان كل شاعر من النصارى في تلك القرون يصور المسلمين عُبَّاداً للأوثان ويقول: إن لهم ثلاثة آلهة على ثلاث درجات: 1- ماهون، 2- أوبلين، 3- ترماكان، وكان هؤلاء الكتاب من أهل أوربا يزعمون أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أوجد ديناً يعلن فيه عن نفسه أنه إله، وأشنع من ذلك وأغرب أن يعتقدوا في محمد الذي هدم الوثنية وأتى على بنيانها من الأساس وحطم الأصنام وأزالها من الوجود إنه رجل حمل الناس على عبادة هيكله المصنوع من الذهب!"، وكان النصارى حينما ردوا المسلمين في إسبانيا إلى أسوار سرقسطة أذاعوا أن المسلمين عادوا وأزالوا أصنامهم!، وكانت تلك الإذاعة الكاذبة منهم للحرص على عدم افتضاح كذبهم على المسلمين بأنهم عُبَّاد أصنام مع أنهم لم يجدوا في مساجدهم أصناماً حينما استولوا على بلادهم – بل قد نظم بعض شعراء ذلك الزمن الخرافة السائدة بين النصارى في حق المسلمين قائلاً: "(أوبلين) – إله المسلمين- كان في داخل غارٍ فضربه المسلمون وامتهنوه ولعنوه وقطعوه قطعة قطعة وداسوه تحت أرجلهم، ثم ألقوا إلههم الثاني (ماهون) في حفرة فداسته الخنازير والكلاب وحطمته، ولم يحتقر في الدنيا إله من الآلهة هذا الاحتقار، ثم ندم المسلمون على ما فعلوا فصنعوا من جديد أصنامهم التي خربوها، وكان الملك شارل بعث رجالاً للفحص في كل مكان عن أصنام المسلمين حينما دخلوا سرقسطة حيث ذاعت عبادة الأصنام بينهم من جديد فدخلوا الجوامع وكسروا الأصنام فيها بمطارق من حديد- هكذا أذاعوا كذباً وزورا-" هذا ما يحكيه كاسترو عنهم.

وقال الشاعر ريشر: "إلهي أرسل عذابك على عباد (ماهون) – يريد أمة محمد عليه السلام كأنهم يعبدون صنم (ماهون)-"، وكان هذا الشاعر يدعو النبلاء من أهل الصليب إلى التجنيد العام ضد الإسلام ويقول: "قوموا واهدموا صنم (ماهون) وصنم (تارماكان) وأحرقوهما وضحوا بهما في سبيل إلهكم"، هكذا كان شأن الغربيين في القرون

الوسطى في عداء الإسلام والمسلمين، وقد عاشت تلك الخرافات المفتراة على الإسلام مدداً طويلة في أوربا؛ بل القرون التالية لم تكن أحسن حالاً من القرون السابقة في روح العداء للإسلام والافتراء على الإسلام، وإن اختلفت الأساليب.

ولما كثر المتنبهون بينهم إلى وجوه الفرية في دعاياتهم ضد الإسلام بدأ المموهون من دعاة الغرب يسلكون طريقاً آخر في الإساءة إلى الإسلام وذلك بأن يتظاهروا بمظهر البحوث البريئة في الإسلام وتاريخ الإسلام بالنقل عن الكتب المؤلفة في الشرق، فبدأوا منذ القرن السابع عشر الميلادي يترجمون إلى لغتهم بعض نصوص يتصيدونها في كتب الشرق مما يرون فيه تشويهاً للتاريخ الإسلامي، وكان أول عملهم ترجمة ما يرون من ذلك في كتب أمثال: سعيد بن البطريق الإسكندراني[1]، والشيخ المكين جرجس بن العميد[2]، وأبي الفرج غريغوريوس بن هارون الملطي[3] من نصارى الشرق، ثم في مصادر ألفها غلاة الشيعة – أذيال ابن سبأ السابق ذكره–، ثم في كتب أمثال الواقدي، وابن هشام، والطبري، وسائر الكتب الجامعة لكن غثٍّ وسمين مما تحتاج نصوصه وأسانيده إلى نظرٍ فاحص ونقدٍ شامل، وكان اهتمامهم بادئ ذي بدء بكتب السير والمغازي علماً منهم بأن التشكيك فيها يثمر ثمرات المروق والتحلل في مقلدة الغرب من أبناء الشرق الأغرار لجهلهم بمداخل التلبيس ووجوه الفساد في عروضهم للأبناء ولعدم تضلع هؤلاء الأبناء في العلوم الإسلامية.

وأمثل من كتب في السير من رجال الصدر الأول موسى بن عقبة، وعليه يعول البخاري، وقد أثنوا عليه خيراً إلا أن رواياته عن ابن شهاب، وقد ذكر الإسماعيلي الحافظ أنه لم يسمع منه شيئاً، وابن شهاب تغلب عليه المراسيل في باب السير والمغازي، ومراسيله شبه الريح عند ابن القطان والشافعي، وأما ابن جرير الطبري صاحب (التاريخ) فجليل القدر في الحديث والتفسير والفقه لكنه لم يضمن صحة ما أورده في تاريخه بل قال في (1–5): "فما كان في كتابي هذا مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يأت ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنما أدينا ذلك نحو ما أُديَّ إلينا"، وقال هناك أيضاً: "إذا لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج"، فبهذا يعلم أنه تبرأ من عهدة رواياته في التاريخ وحملها على أكتاف رواتها له، ومحمد بن إسحاق صاحب المغازي اختلف فيه أهل النقد، وقد كذَّبه كثير منهم، وكان أبو حنيفة ومالك لا يرضيانه، ومن قواه في المغازي اشترط في رواياته شروطاً لا تتوفر في مواضع الريبة، وفي (فهرست ابن النديم) كلام طويل فيه، فمنه: "مطعون غير مرضي الطريقة، يحكى أن أمير المدينة رقى إليه أن محمداً يغازل النساء فأمر بإحضاره ... وضربه أسواطاً ونهاه عن الجلوس في مؤخرة المسجد، وكان حسن الوجه ... ويقال كان يعمل له الأشعار ويؤتى بها ويسأل أن يدخلها في كتابه في السيرة فيفعل، فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر ..."، والجمهور

(1) توفي سنة 328هـ.

(2) توفي سنة 672هـ.

(3) معروف بابن العبري توفي سنة 1286رومي وتواريخ الثلاثة مطبوعة.

على تقويته في المغازي بشروط معروفة، وروايات مثله يجب التروي فيها ولو بالنظر إلى رجال الأسانيد إليه، فراويته زياد البكائي مختلفٌ فيه، ضعفه النسائي وتركه ابن المديني وقال فيه أبو حاتم: "لا يحتج به"، وراويته الآخر سلمة بن الفضل الرازي مختلفٌ فيه أيضاً، يقول عنه أبو حاتم: "لا يحتج به"، وراويته سلمة هذا هو محمد بن حميد الرازي مختلف فيه، وقد كذبه كثيرون أشنع تكذيب، وبطريقه يسوق ابن جرير روايات ابن إسحاق، وأما هشام بن الكلبي وأبوه والواقدي فالكلام فيهم معروف، وأما راويته الوليد بن مسلم محمد بن عائذ الدمشقي فيقول عنه أبو داود: "هو كما شاء الله"، وأما سيف بن عمر التميمي صاحب كتاب (الردة والفتوح) فمتروك الحديث عند أبي حاتم، وقد ضعفه غير واحد، بل رماه ابن حبان بالوضع، والراوي عنه شعيب بن إبراهيم من المجاهيل عند ابن عدي والذهبي، وله أخبار فيها تحامل على السلف، والراوي عن شعيب هذا السري بن يحيى غير موثق وهو شيخ ابن جرير في رواياته عن سيف، وأما من فوق سيف من الرجال فمجاهيل في الغالب، فإذا كانت أسانيد ابن جرير في السير كما ذكرناه تعيَّن وجوب التحري في رواياته في السير لا سيما في مواضع الانفراد، فضلاً عن وجوب ذلك فيمن هو دونه في العلم من جملة السير، فاليعقوبي شيعيٌّ متحامل، وأبو الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني من رجال الأسمار لا من مصادر صحيح الأخبار، كان يأتي بأعاجيب بـــــ "حدثنا وأخبرنا" وقد اتهم، قال النوبختي: "كان أكذب الناس، يدخل سوق الوراقين وهي عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب فيشتري كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها"ا.هـــ، وقد أغنى الله تعالى أهل العلم من هذا الظنين، وتلك نماذج من مصادر السير وأخبار الصدر الأول تحمل الحريص على الحقائق على التحري البالغ في أسانيد الأخبار ولا سيما في مواضع الانفراد ومواطن الريب التي يتمسك بها أعداء الإسلام جهلاً منهم أو تجاهلاً للعلل القاضية على تلك الأخبار، والتوسع في معرفة نقد الرجال به يعرف المرء كيف يرد الفرية ويقوي القوى، فيحتمي من الوقوع في أفخاخ الأعداء المنصوبة للكيد بالإسلام، وقد توسعت بعض توسع في ذلك في مقال لي في مجلة الإسلام (5-1362هـــ) تحت عنوان: "خالد بن الوليد وقتل مالك بن نويرة" وأبديت هناك شتى العلل في الأخبار المتضاربة في حادثة ابن نويرة، ومن طالع كتب أخبار الصدر الأول التي ألفها الأظناء المتهمون من رجال الشرق أو الغرب من غير خبرة في مداخل الفساد في تلك الأخبار ووجوه التدليس فيها وألف أو ترجم شيئاً منها من غير تمحيص هلك وأهلك وضلَّ عن سواء السبيل.

فأوصي كل حريص على دينه وكرامته أن يحتاط غاية الاحتياط في أنباء الصدر الأول بتعرف طرق تصفيتها بمصفاة العلم ووجوه عيارها بمعايير الفهم نسأل الله سبحانه الصون والعون.

وقد قلت في مقال لي: "إنه لا يخفى على الباحث مبلغ سعى أعداء الإسلام في كل دور، ووجوه تجدد مكرهم في كل طبقة، فمِن ألوان مكرهم في عهد تدوين الروايات اندساس أناس منهم نقلة الأخبار متلفعين بغير أزيائهم لترويج أكاذيب بينهم مما يشوه سمعة الإسلام وسمعة القائمين بالدعوة إلى الإسلام، فراجت تلك الأكاذيب المدبرة على نقلة لم يؤتوا بصيرة نافذة فخلدوها في الكتب، حتى ظلَّ الكائدون يتذرعون بها في كل قرن للكيد بالإسلام، لكن الله سبحانه أقام ببالغ فضله جهابذة تضع الموازين القسط لتعرف الأنباء الصافية العيار من تبهرج الأخبار، فأصبحت تعاليم

الإسلام وأنباء الإسلام في حرز أمين من دسِّ الدساسين عند من يعرف أن يزنها بتلك الموازين، وكانت طريقة كتاب (الغرب في النيل من الإسلام) طريقة الإقذاع المجرد والبهت الصرف إلى أن جدَّ لهم منذ قرنين منهج في تشويه الحقائق، يتصيدون أكاذيب من كتب الشرق متظاهرين بمظهر البحث العلمي البريء، فأخذ من له صلةٌ بهم من أبناء الشرق الأغرار ينخدع بكتاباتهم وينشر خزعبلاتهم بين بني قومه فاستشرى الشرُّ ووجب تدارك الأمر، فأصبح الحتم اللازم على كُتَّاب "السير" – من أدباء اليوم– أن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم إزاء الكتب المؤلفة في السير في الشرق والغرب قديماً وحديثاً، وأن يضاعفوا السعي في تمحيص الحقائق بالموازين المعتبرة عند أهل النقد، بدون أن يجعلوا لأقلامهم الحرية المطلقة التي تعودوها في سبك القصص والروايات العصرية والموضوعات الأدبية في الصحف السيارة محتاطين غاية الاحتياط في إيداع آرائهم ونقولهم في الكتب، متريثين إلى نتيجة عرضها لمحكِّ النقد الصحيح، فإذا تبصروا هكذا في تعرف دخائل الكتب الشرقية خاصة، يسهل عليهم القضاء على صنوف الكيد في كتب الغربيين.

ومؤلفات الغرب ضد الإسلام في القرن الثامن عشر الميلادي وما بعده مسرودة في مقدمة كتاب (سير النبي صلى الله عليه وآله وسلم) للعلامة شبلي النعماني الهندي، وهو كتابٌ جيدٌ في تمحيص السيرة النبوية والردِّ على المشككين فيها، قليل الأخطاء بالنسبة إلى غيره، والغريب انخداع كثير من كتاب الشرق فيما يؤلفونه في السير وتاريخ الصدر الأول بمؤلفات هؤلاء، والأغرب من ذلك أن نرى صاحب المنار[1] يقرظ كتاب البرنس كايتانو الإيطالي – في عشرة مجلدات– في تاريخ الإسلام المعروف بالحوليات ويثني عليه خيراً مع أنه من شرِّ ما كتب في هذا الموضوع مهما تظاهر مؤلفه بمظهر الباحث البريء، وتراه أيضاً يثني في منارة على تاريخ الإسلام للدكتور دوزي الهولندي مع أنه من أشدِّ من ألفَّ من الأوربيين في تاريخ الإسلام تشويهاً للحقائق، فإذا كان المتجرد للذبِّ عن الإسلام في مدرسة الشيخ عبده[2] يكيل الثناء جزافاً هكذا لأضرِّ الكتب قبل أن يطلع على أصل الكتابين ولا على ترجمتهما فماذا تكون حال الشبيبة الذين ينهلون من مناهل الغرب قبل أن يتضلعوا في العلوم الشرقية؟ – وقى الله الإسلام شرَّ مثل هذا الذاب عن حريم قدس الإسلام– ثم بدأ المستشرقون من اليهود ومعهم غيرهم يبحثون في القرآن، وعلوم القرآن، والحديث، والفقه وأصوله، وعلم أصول الدين، وتاريخ النِحل بغية أن يجدوا فيها ما يمكنهم من التشكيك في أصول الإسلام ساعين جهدهم في إخفاء غاياتهم من تلك البحوث متظاهرين بالإنصاف في بعض المسائل ليلقوا في روع ضحاياهم أنهم على الحقِّ في جميع بحوثهم، وما هم إلا كصياد يرمي طعماً شهياً ليظفر بصيده كله غنيمة باردة، والوقوع في الفخِّ عاقبة من يمَّم مناهل الغرب قبل أن يرتوي من معين الشرق الفياض بما فيه وقاية لحياته الروحية، وضحايا هذا الفريق من المستشرقين في غاية الكثرة.

ومن أخطر هذا الفريق المموه غرلد زيهير المجريِّ الدم، اليهودي النحلة، العريق في عداء الإسلام، الماضي في هذا السبيل طول حياته، وهو من رجال أوائل القرن الميلادي العشرين، وله دراسات في القرآن وعلوم القرآن، وفي

---

(1) الشيخ رشيد رضا.

(2) شيخ الإسلام محمد عبده.

الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، وفي الكلام وفرق المتكلمين، محتالٌ ماهرٌ في توليد ما يشاء من نصوص يتصيدها من مصادر تعجبه باعتبار غايته، مغالطاً في تحميلها ما لا تحتمله من المعاني عند أهل البصيرة، ومتجاهلاً اختلاف منازل تلك المصادر في الثقة والتعويل، فلو شكلت لجنة علمية لفحص كتب هذا المجريِّ المنطوي على عداءٍ بالغٍ للإسلام لوضح الصبح لكل ذي عينين، ولسَهُلَ الردُّ على الماكر المخادع، لكن ترجمة تلك الكتب بمعرفة بعض الأزهريين من غير عدة كافية، ونشرها بدون ردود وافية، وعرض شكوك المشككين من أعداء الإسلام هكذا لأنظار الناطقين بالضاد تكون نيابة عن الفاتنين في إيصال تشكيكاتهم إلى البيئات الإسلامية، وهذا يتحتم أن يكون مما لا يرضاه الأزهر معقل الإسلام الأوحد – فيما نرى–، فيجب أن يكون القرار الذي كان الأزهر أصدره قبل سنين في ترجمة كتب أمثال غولد زيهير ونشرها مشروطاً باستيفاء الردود عليها كاملة غير منقوصة في غير هوادة، وإلا كان الأزهر عمل نقيض واجبه رغبةً منه في التظاهر بمظهر التجديد العصري، غير آبهٍ بالغاية الأصلية من وجود الأزهر ومن إغداق مال الأمة عليه، والواقع أن مرض مسايرة الزمن قد يوقع العالم المائع في النظر إلى الشرق بمنظار مصغر، وإلى الغرب بمنظار مكبر فيلبي مسرعاً النداءات الموجهة إليه من هيئات غير إسلامية مع إغفال كثير من رغبات الجماعات الإسلامية، ويتسرع في إيفاد ممثلين إلى مؤتمرات الأديان أو القوانين والشرائع في العالم الغربي والشرقي – بدل الاهتمام بترقيع الخروق في الداخل واستكمال النقص البارز في العلوم الأصلية–، ويبعث بعثات إلى جامعات المستشرقين في أوربا لا لنشر الإسلام في تلك الأصقاع، بل للتضلع في العلوم الإسلامية على أيدي أساتذة تلك الجامعات المنطوين على أغراض عدائية اكتساحية نحو الشرق الإسلامي، ويتآخى بصفاء مع شتى الأديان والنِحل، فيتساهل مع جماعات تتكون في الداخل أو الخارج بتوجيه (براني) من رجال شتى الأديان والنِحل والمذاهب المنحرفة عن مناهج أهل الحق تحت ستار التقريب بين الطوائف، وزرع التحابب والإخاء بينهم، وردهم جميعاً إلى الأصول المتفق عليها بين الأديان، وإغفال مواطن الشقاق والخلاف، لتكون لهم رسالة مشتركة خالدة لا اختلاف فيها ودين موحد (دين اسبرنتو)، والذين يراد إيقاعهم بذلك في الأحبولة هم المسلمون، وتلك الجمعيات التي تلهج بتوحيد الأديان إنما يريدون استزلال قدم الشرق من موقف الاستمساك بدين الإسلام وفقه الإسلام باسم أن التمسك تعصب يجب هجره، فيصبح هكذا لقمة سائغة في حلوق المبتلعين من الغربيين؛ لأن من لا تمسك عنده لا غيرة ولا حمية ولا عزة ولا كرامة عنده، فيكون كيانه في مهبِّ الريح، وذلك الدين الموحد لا يكون دين الإسلام، قال الله تعالى: ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾(البقرة: 120)، وقال: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ ﴾ (آل عمران: 19)، وقال: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ ﴾(آل عمران: 85)، فيكون (دين اسبرنتو) والذي يدعو إليه هؤلاء غير دين التوحيد الذي قام بالدعوة إليه خاتم رسل الله صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وتلك أمور تعجل الانحلال الديني والخلقي والسياسي في الجماعة وتبدد كيان الفقه الإسلامي – الذي حفظ ديننا وكياننا وعِزّتنا وكرامتنا من فجر الإسلام إلى اليوم–، وتزيل أيضاً من النفوس تلك العقيدة الإسلامية التي كونت هذه الأمة كأمة حيَّة ذات عِزّة خالدة.

وأقلُّ ما في بعث عضو إلى مؤتمر الأديان الاعتراف – باسم المسلمين– بأن الإسلام على قدم المساواة مع الأديان الباطلة في نظر المسلمين، فأيُّ كسب في هذا؟، وأنَّى يقرُّ الإسلام هذا الوضع؟، وكيف يستسيغ مسلم أن يتخلى عن بعض أحكام الإسلام للتقرب إلى دين غير دينه؟، وما ذلك إلا إيمانٌ ببعض الكتاب وكفرٌ ببعض، ثم ماذا نكسب من اعتراف مجمع قانوني بأن يكون الفقه الإسلامي من مصادر التشريع غير جعله في صفِّ القانون الروماني المعروف؟، وهذا اعتزازٌ هزيلٌ ممن لا يعرف مبلغ أخذ التشريع الأوربي عن الفقه الإسلامي عامة وعن فقه مالك خاصة بمناسبة المجاورة كما يظهر من تاريخ الكنيسة لموسهيم، وقد ألف الشيخ مخلوف المنياوي من فضلاء المالكية في أواخر القرن الهجري المنصرم كتاباً فيما أخذه الغرب من مذهب مالك، وهو محفوظ في دار الكتب المصرية تحت رقم: 1085 في الفنون المتنوعة، ويعلم من كتب أهل الشأن أن أهل أوربا هم الذين كانوا عالةً على علومنا في زمن من الأزمان، لا أننا عالةٌ عليهم يوماً ما في كل شيء حتى الفقه الإسلامي والعلوم الإسلامية، وتلك المحاولات من الأعداء بواسطة صنائعهم في بلاد الإسلام إنما هي لإزالة ما نحمله في قرارة نفوسنا من اعتقاد القداسة في الفقه الإسلامي بحق، لنجعله في صفِّ القوانين الوضعية التي تتبدل وتتغير بتغير أهواء الحكام، فإذا تابعناهم في ذلك نكون قد قطعنا بأيدينا هذا الرباط القوي الذي به كان تماسكنا، فنقع في فوضى تشريعية، وهذه غايةٌ لها قيمتها في نظر أعداء الإسلام، فيثيرون بواسطة صنائعهم في الداخل بين حين وآخر تحبيب المساس بالفقه الإسلامي بشتى المحاولات من توحيد وتقريب ومقارنة بينه وبين القوانين السابقة وتصفية لمسائله بمصفاة الغرب باسم الإصلاح، وكل ذلك مما رأينا بوادره الخطرة في الأزهر الحديث منذ سنوات وتحدثنا عن كثير من ذلك في حينه، ولا يسع المقام للإفاضة في دخائل هذه الاتجاهات، وإني أرى أن الشيخ الذي يولى أمر الأزهر قريباً سيجد التركة في غاية الثقل من كل ناحية إذا أراد القيام بواجبه كشيخ للمعقل الأوحد للإسلام وعلوم الإسلام، فنتمنى له التوفيق في تقويم الاتجاه وإصلاح شئون التعليم والتهذيب والنهوض بالأزهر، والله سبحانه هو الهادي والموفق، وإليه مرجع الأمر كله.

وآخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

كتبه الراجي غفران ذنوبه محمد زاهد بن الحسن بن علي الكوثري عفى الله عنهم وعن أمهاتهم وقرابتهم ومشايخهم في يوم الخميس 14 المحرم سنة 1367هـ حامداً ومصلياً بمنزله في القاهرة حرسها الله تعالى.